[٨٨] هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ [١]

قال الإمام القاضى أبو بكر محمد بن عبد الباقى الأنصارى - رحمه الله - :

كنت محاوراً بمكة - حرسها الله تعالى - فأصابنى يوماً من الأيام جوعٌ شديد لم أجدْ شيئاً أدفعُ به عني الجوعَ ، فوجدتُ كيساً من إبْريسَم « حرير » مشدوداً بشُرَّابة من إبْريسَم أيضاً ، فأخذته وجئتُ به إلى بيتي ، فَحَلَلْتُه فوجدتُ فيه عِقْداً من لؤلؤ لم أرَ مثله ، فخرجتُ فإذا الشيخ ينادى عليه ، ومعه خِرْقةٌ فيها خمسمائة دينار وهو يقول : هذا لمن يردُّ علينا الكيس الذى فيه اللؤلؤ .

فقلت - فى نفسى - أنا محتاجٌ ، وجئتُ به إلى بيتي ، فأعطانى علامة الكيس ، وعلامة الشُّرَّابة ، وعلامة اللؤلؤ وعَدَدَه ، والخيطَ الذى هو مشدودٌ ، فأخرجته ودفعتُه إليه فسلَّم إليَّ الخمسمائة دينار ، فما أخذتها ، وقلتُ : يجب عليَّ أن أُعيده إليك ولا آخذ له جزاءً .

فقال لي : لابدَّ أن تأخذ ، وألحَّ عليَّ كثيراً ، فلم أقْبَلْ ذلك منه ، فتركني ومضى .

وأما ما كان منى : فإنى خرجتُ من مكة وركبت البحر ، فانكسر المركبُ وغرق الناس ، وهلكت أموالهم ، وسلمت أنا على قطعة من المركب ، فبقيت مدة فى البحر لا أدرى أين أذهب . فوصلتُ إلى جزيرة فيها قومٌ ، فقعدت فى بعض المساجد . فسمعونى أقرأ . فلم يبْقَ فى تلك الجزيرة أحدٌ إلا جاء إليَّ

---

[١] الفرج بعد الشدة والضيق . المحاسبى

وقال : علمني القرآن ، فَحَصَل لى من أولئك القوم شيءٌ كثير من المال .

قال : ثم إنى رأيت في ذلك المسجد أوراقاً من مُصْحف فأخذتها أقرأ فيها ، فقالوا لى : تُحسن تكتبُ ؟ فقلت : نعم ، فقالوا : علمنا الخط ، فجاؤوا بأولادهم من الصبيان والشباب ، فكنت أُعلّمهم ، فحصل لى أيضاً من ذلك شيء كثير .

فقال لى بعد ذلك : عندنا صبيةٌ يتيمة ، ولها شيءٌ من الدنيا نريد أن تتزوج بها ، فامتنعت ، فقالوا : لابد وألزمونى ، فأجبتُهم إلى ذلك .

فلما زفُّوها إليّ مددتُ عينى أنظر إليها ، فوجدتُ ذلك العقْدَ بعينه معلقاً فى عُنقها ، فما كان لى حينئذ شغلٌ إلا النظر إليه ، فقالوا : يا شيخ كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد ولم تنظر إليها !! فقصصت عليهم قصة العقد ، فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير ، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة ! فقلت : ما بكم ؟ فقالوا : ذلك الشيخ الذى أخذ منك العقد أبو هذه الصبية ، وكان يقول : ما وجدت فى الدنيا مسلماً إلا هذا الذى ردّ عليّ هذا العقد ، وكان يدعو ويقول : اللهم اجمع بينى وبينه حتى أزوّجه بابنتى ، والآن قد حصلت .

فبقيت معها مدةً ، ورُزقتُ منها بولدين ، ثم إنها ماتت فورثت العقد أنا وولدىّ ، ثم مات الولدان فحصل العقد لي ، فبعته بمائة ألف دينار ، وهذا المال الذى ترونه معى من بقايا ذلك المال [1] .

---

(١) من ذيل طبقات الحنابلة ١ : ١٩٦ ، لابن رجب الحنبلي .

[٨٩] قصة إطاعة النار لتميم الداري رضي الله عنه

عن معاوية بن حرمل قال : قدمت المدينة فذهب بى تميم الدارى رضي الله عنه إلى طعامه فأكلت أكلاً شديداً ، وما شبعت من شدة الجوع ، فقد كنت أقمت فى المسجد ثلاثاً لا أطعم شيئاً ، فبينما نحن ذات يوم إذ خرجت نار بالحرة ، فجاء عمر إلى تميم رضى الله عنهما فقال : قم إلى هذه النار ، فقال : يا أمير المؤمنين .. من أنا ؟ وما أنا ؟ ، فلم يزل به حتى قام معه ، قال : وتبعتهم ، فانطلقا إلى النار ، قال : فجعل يحوشها بيده هكذا ، حتى دخلت الشعب ، ودخل تميم خلفها وجعل عمر يقول : ليس من رأى كمن لم يَر !! [١] .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة ٦/ ٨٠ ، دلائل النبوة لأبى نعيم ص ١٣٢ .

[٩٠] قصة العواء والدخان (١)

عن أبى أمامة الباهلى رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« بينا أنا نائم إذ أتانى رجلان ، فأخذا بضبعى ، فأتيا بى جبلاً وعراً ، فقالا : اصعد ، فقلت : إنى لا أطيقه ، فقالا : إنا سنسهله لك .

فصعدت ، حتى إذا كنت فى سواء الجبل ، إذا بأصوات شديدة ، قلت : ما هذه الأصوات ؟ قالوا : هذا عواء أهل النار ، ثم انطلق بى ، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم ، مشققة أشداقهم ، تسيل أشداقهم دماً ، قال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلة صومهم ، فقال : خابت اليهود والنصارى .

ثم انطلق بى ، فإذا أنا بقوم أشد شيء انتفاخاً ، وأنتنه ريحاً ، وأسوأه منظراً ، فقلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الزانون والزوانى .

ثم انطلق بى فإذا أنا بنساء تنهش ثديهن الحيات ، قلت : ما بال هؤلاء ؟ قال : هؤلاء يمنعن أولادهن ألبانهن .

ثم انطلق بى فإذا أنا بالغلمان يلعبون بين نهرين ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذراري المؤمنين .

ثم شرف شرف فإذا أنا بنفر ثلاثة يشربون من خمر لهم ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء جعفر وزيد وابن رواحة .

---

(١) قصص النبى ، للخولى .

ثم شرفني شرف آخر ، فإذا أنا بنفر ثلاثة ، قلت : من هؤلاء ؟ ، قال : هؤلاء إبراهيم وموسى وعيسى ، وهم ينتظرونك ، صلى الله عليهم أجمعين ، ثم انطلقنا فإذا نحن برجال أحسن شيء وجهاً ، وأحسنه لبوساً ، وأطيبه ريحاً ، كأن وجوههم القراطيس ، قلت : من هؤلاء ؟ .

قال : هؤلاء الصديقون والشهداء والصالحون .

ثم انطلقنا فإذا نحن بموتى أشد شيء انتفاخاً ، وأنتنه ريحاً قلت : من هؤلاء ؟ .

قال : هؤلاء موتى الكفار .

ثم انطلقنا ، فإذا نحن نرى دخاناً ونسمع عواءً .

قلت : ما هذا ؟

قال : هذه جهنم فدعها .

ثم انطلقنا ، فإذا نحن برجال نيام تحت ظلال الشجر، قلت: من هؤلاء ؟.

قال : هؤلاء موتى المسلمين »[1] .

(١) **حديث صحيح** : أخرجه ابن حبان « ١٨٠٠ » وابن خزيمة « ١٩٨٦ » ، والحاكم « ٤٣٠/١ » وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، والطبراني « ٥٧٧ » في مسند الشاميين ، «٧٦٦٦ » و « ٧٦٦٧ » في الكبير ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد « ٧٧/١ » : رجاله رجال الصحيح .

obeikandl.com

[٩١] عدل القضاة وخضوع الأمراء

كان المهدى ثالث خلفاء بنى العباس يفتش عن رجل فقيه صالح تقي ليوليه قضاء مدينة الكوفة ، فدلّوه على رجل فقيه صالح تقي لا يخاف إلا الله تعالى ، اسمه شريك بن عبد الله ، فاستدعاه وقال له : إننى أريد أن أوليك قضاء الكوفة ، فقال له شريك : إننى لا أحب القضاء ، ولا أريد أن أكون قاضياً أبداً ، فقال له المهدى : ولماذا ؟ ، قال شريك : لأننى أخاف أن أخطيء فى حكمٍ من أحكامي ، فأنا إنسان على كل حال ، فيدخلني الله تعالى النار ، كما أخاف أن أصدر حكماً على أحد الرؤساء أو الأمراء فلا ينفذ .

فقال له المهدى : إذا اجتهدت أن تحكم بالحق ثم أخطأت فهذا لا يؤاخذك الله سبحانه وتعالى فيه ، وإنما يؤاخذك إذا تعمّدت الظلم ، وتعمدت أن تحكم بغير ما أنزل الله ، أما تنفيذ الأحكام فأنا أتعهد لك بتنفيذ أحكامك كلها ولو كانت عليّ أنا ، وإذا لم تتولوا القضاء أنتم يا فقهاء الأمة وصلحاءها وأتقياءها ، فمن يتولاه ؟ هل يتولاه الجاهلون والظالمون والمنحرفون ؟ فيكون الإثم عليكم أنتم لأنكم هربتم من ميدان الحق .

عند ذلك قبل شريك أن يتولى قضاء الكوفة ، وكان واليها موسى بن عيسى عم الخليفة المهدي ، وصار شريك يذهب كل يوم إلى مجلس القضاء منذ الصباح ، فيدخل عليه المتخاصمون فيحاكمهم ويحكم على المذنب والمسيء منهم ، ويرد الحق إلى صاحب الحق ، ولا يخاف فى أحكامه من أحدٍ سوى الله تعالى .

وكان فى الكوفة بستان جميل على شاطىء نهر الفرات ، يملكه رجل من

الكوفة ، وكان أمير الكوفة موسى يريد أن يمتلك هذا البستان لأنه بجانب قصره ، فعرض على صاحبه أن يشتريه منه ، فلم يرضَ الرجل أن يبيعه .

ثم توفى الرجل صاحب البستان ، وكان له أولاد ذكور وبنت واحدة ، فعرض موسى بن عيسى على الورثة أن يشتري البستان منهم فرضى الأولاد جميعهم بيعه ما عدا البنت ، فإنها لم تقبل أن تبيع حصتها على الرغم من الثمن الكبير الذى عرضه عليهم موسى بن عيسى ، وباع الأولاد حصتهم وبقيت حصة البنت ، فَبَنَتْ حائطاً حول حصتها وعزلتها عن بقية البستان ، ولكن موسى بن عيسى يريد أن يأخذ البستان كله سواء أكان بحق أو بدون حق ، لذلك أرسل بعض خدمه فهدموا الحائط الذى بنته البنت وضموا حصتها إلى باقى البستان ، فذهبت إلى القاضى شريك وأقامت الدعوى على موسى بن عيسى أمير الكوفة .

فأرسل القاضى شريك إليه أن يحضر إلى مجلس القضاء ليستمع إلى أقواله وإلى أقوال المرأة معاً ، فلم يقبل بالحضور ، وعدّ ذلك إهانة له ، وهو أمير الكوفة ، أن يحضر مجلس القضاء ليتحاكم مع امرأة ، وأرسل بدلاً منه صاحب الشرطة – أى رئيس الشرطة – ليقول للقاضى : كيف تقبل دعوى امرأة بدون أن يكون معها شهود ، فقال له القاضى : ولماذا تتدخل فيما لا يعنيك فأنا طلبت الأمير ولم أطلبك أنت ، لذلك فجزاؤك السجن ، وأمر رجاله أن يقبضوا عليه ويضعوه فى السجن .

ولما علم الأمير بذلك أرسل جماعة من وجهاء الكوفة إلى القاضى ليسترضوه ويقولوا له : إن الأمير ليس من العامة لكى تعامله كبقية الناس ، بل يجب أن تكون له معاملة خاصة .

فقال لهم شريك القاضي : الناس كلهم أمام القضاء سواء ، وأنتم أيضاً تتدخلون في أمور القضاء ، وهذا جزاؤه السجن . وأمر رجاله أن يضعوهم في السجن .

وعندما علم الأمير موسى بن عيسى بذلك ركب هو ورجاله وذهبوا جميعهم إلى السجن ففتحوه وأخرجوا الجميع منه ، فأتى السجان إلى القاضي شريك وأخبره بذلك ، فقال : أنا لم أطلب القضاء وإنما الخليفة أكرهني عليه وما قبلت به إلا على شرط أن تنفذ أحكامي كلها ، وحمل أوراقه وكتبه ومتاعه وركب دابته وتوجه إلى بغداد .

وعندما علم الأمير بذلك خاف كثيراً ، لأن الخليفة إذا علم بذلك فإنه سوف يعزله من الولاية ، لذلك ركب ولحق بالقاضي خارج مدينة الكوفة ، وصار يناشده ويرجوه أن يعود إلى الكوفة وينفذ له طلباته كلها ، فقال له القاضي : لا أعود حتى يعود السجناء جميعهم إلى السجن ، وأن تقبل أنت بحضور مجلس القضاء مع المرأة صاحبة البستان ، فقبل الأمير بكل ذلك ، وعاد السجناء إلى السجن ، وحضر الأمير مجلس الحكم مع المرأة ، فحكم عليه القاضي أن يعيد بناء الحائط كما كان ، وألا يُكره المرأة على بيع حصتها ، فامتثل الأمير للحكم .

عند ذلك أمر القاضي بإخراج السجناء كلهم من السجن ، وذهب إلى الأمير وسلم عليه ، وقال له : هل تأمرني الآن بشيء ؟ فذاك حق الشرع وهذا حق الأدب .

[٩٢] الانتساب إلى الإسلام أعظم الانتساب [١]

عن أبي بن كعب قال : انتسب رجلان على عهد رسول الله ﷺ فقال أحدهما : أنا فلان ابن فلان فمن أنت لا أمّ لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام ، فقال أحدهما : أنا فلان ابن فلان - حتى عدّ تسعة - فمن أنت لا أمّ لك ؟ قال : أنا فلان ابن فلان ابن الإسلام ، قال : فأوحى الله إلى موسى عليه السلام ، أن قل لهذين المنتسبين : أما أنت أيها المنتمي أو المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم ، وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة** » [٢] .

---

(١) قصص وعبر في أحوال من غبر .

(٢) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » « ٨٨/٢ » وأخرجه عبد الله بن أحمد في الزوائد « ١٢٨/٥ » وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة .

[٩٣] اجعل ضفائري لجام فرس في سبيل الله [١]

سبى الروم فى غزوة من الغزوات بعضاً من النساء المسلمات ، فعلم بذلك منصور بن عمار ، فقالوا له : لو اتخذت مجلساً بالقرب من أمير المؤمنين هارون ، فحرضت الناس على الجهاد .

ففعل ... وبينما هو يحث الناس على الجهاد فى سبيل الله إذا طُرحت خرقة فيها صرة مختومة ومضموم بها كتاب .

ففتح منصور بن عامر الكتاب وقرأ وإذا فيه : إنى امرأة من أهل البيوت من العرب ، بلغنى ما فعل الروم بالمسلمات ، وسمعت تحريضك الناس على الغزو فى ذلك ، فعمدت إلى إكرام شيء من بدنى وهما ذوابتاي – ضفائري – فقطعتهما وصررتهما فى هذه الخرقة المختومة .. ! .

وأنشدك الله لما جعلتها قيد – لجام – فرس غاز فى سبيل الله !! فلعل الله أن ينظر إليّ على تلك الحال فيرحمنى بها ، فلم يملك منصور نفسه فبكى وأبكى من حوله ، فعزم هارون الرشيد على الجهاد فأمر بالنفير العام ، فغزوا مع الجيش وفتح الله عليهم ، وفكوا الأسيرات ، وأطلقوا سراح المسلمات العفيفات الطاهرات .

---

(١) مجالس النساء .

[٩٤] الإنسان الظلوم (١)

سافر التاجر الصالح إلى حلب للتجارة ، وكان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى ١٩١٤هـ ، وفى الطريق هطل ثلج كثير فسد الطرق ، فطرق باب أحد البيوت فلم تكن هناك فنادق يأوى إليها المسافرون ... لقد كان الغريب أو المسافر يطرق أى دار من دور المكان الذى يصل إليه ثم يحل ضيفاً بين ظهرانى أهله ينام كما ينامون ويتناول من طعامهم بدون أجر أو مقابل ، ففتح له الباب رب الدار فأخبره بأنه ضيف الله ، فرحب به صاحب الدار وأدخله وتجارته إلى صحن داره وقدم الطعام للضيف ، وكان صاحب الدار فقيراً معدوماً ، وكان متزوجاً وله ولد واحد فى العقد الثانى من عمره ، وكان فى داره غرفتان ، غرفة يأوى إليها هو وزوجته ، والأخرى لولده واجتمعت العائلة حول الضيف وعرف المضيف من خلال الحديث مع الضيف أنه يحمل مبلغاً من المال للتجارة ، وفى الهزيع الثانى من الليل أوى المضيف مع زوجه إلى غرفتهما وأوى الضيف إلى غرفة ولد المضيف ، فنام الولد على فراشه فى الزاوية اليمنى من الغرفة وأوى الضيف إلى فراشة فى الزاوية اليسرى من الغرفة .

وهمست الزوجة لزوجها : إلى متى نبقى فى فقر شديد ، هذا الضيف غنى ونحن فى أشد الحاجة إلى ماله وتجارته ، إننا مقبلون على مجاعة شديدة وسنموت فيها بدون ريب ، إن الفرصة اليوم سانحة ولن تعود ، هلم إلى الضيف فاسلبه ماله وخذ تجارته حتى تبقى على حياتنا وحياة ولدنا الوحيد ، وتردد

---

(١) عدالة السماء ، لمحمود شيت خطاب ، بتصرف واختصار .

الرجل ، وألحت المرأة وكان الشيطان ثالثهما وقالت : إن ما تفعله ضرورة لإنقاذنا من الموت الأكيد والضرورات تبيح المحظورات ، واقتنع الرجل أخيراً ، وعزم على قتل الضيف وسلب مالديه من مال وتجارة .

كان الوقت فى الثلث الأخير من الليل ، وقصد الرجل خنجره وشحذه ثم توجه ناحية غرفة الضيف وابنه ، ومن ورائه زوجه تشجعه ، ومشى رويداً رويداً واتجه شطر الزاوية اليسرى من الغرفة حيث يرقد الضيف وتحسس جسمه حتى تلمس رقبته ثم ذبحه كما يذبح الشاة .. وجاءت الزوجة وتعاونا على سحب الجثة الهامدة إلى خارج الغرفة .. حيث اكتشفا هناك أنهما ذبحا ابنهما الوحيد فشهق الرجل والمرأة شهقة عظيمة وسقطا مغشياً عليهما ، وعلى صوت الجلبة استيقظ الضيف واستيقظ الجيران ليجدا ابن الرجل قتيلاً ، وسارع الضيف والجيران بالماء البارد يرشونه على وجه الرجل وزوجته ، فلما أفاقا أخذ يبكيان بكاءً مراً ، وجاءت الشرطة .. وعرفت ما حدث ، لقد قام الابن إلى فراش الضيف بعد أن غادر أبوه الغرفة وأخذ الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث وطال الحديث حتى نام الولد على فراش الضيف بعد أن غلبه النعاس ، ولم يشأ الضيف أن يوقظ ابن مضيفه فترك له فراشه بعد أن أحكم عليه الغطاء لبرودة الجو ثم أوى إلى فراش ابن المضيف فنام عليه .. وحين قَدِم المضيف إلى غرفة الضيف وابنه كان متأكداً من موضع فراش كل واحدٍ منهما فذبح ابنه وهو يريد الضيف ، ودفن الجيران الولد القتيل ، واستقر والده فى السجن .